دلالية الأسطورة في رواية ريح الجنوب

أ.عمار حلاسة
جامعة ورقلة

المقدمة:

اهتمت الدراسات الحداثية اهتماما لا نظيرله بالتراث وسلطت الأضواء حول الدراسات المهتمة به ، ولعل الفضل في ذلك يعود إلى مدرسة النقد الجديد التي استطاع أحد أبرز أقطابها وهو اليوت أن يلفت الانتباه من خلال قصيدته الأرض الخراب إلى معين لا ينضب وزاد لا غنى عنه وهو الأسطورة حين هدته عبقريته الفنية إلى التوظيف الأمثل لها . حيث استطاع أن يخرج الأسطورة من قالبها البدائي البسيط الذي اعتاد الناس أن يوظفونها به إلى عالم أرحب تلعب فيه موهبة الأديب وقدراته الفنية الدور الأكبر في عملية ولادة هذا الكائن الفني الجديد .

وإذا عدنا إلى رواية ريح الجنوب فسوف يلفت انتباهنا هذا المورد . فعلى الرغم من ضيق الحيز الذي خصصه ابن هدوقة للأسطورة في روايته ، إلا أن الدارس يمكنه من خلالها أن يقف على عبقرية فذة في توظيف الرمز الأسطوري . ويكفي أن نشير ههنا إلى تميز الرمز الأسطوري في هذه الرواية عما يألفه القارئ عادة في مثل هذا النوع من الكتابة حين يعمد الكتاب عادة إلى اقتفاء أثر بعضهم البعض فتتكرر الأسطورة في أعمال عدة إلى درجة الابتذال . غير أن الأسطورة في هذا العمل قد أخذت منحى آخر حيث انطلق الكاتب من الانسجام العام بين جميع آلياته الفنية ليختار الأسطورة التي تتماشى وهذا الاتجاه فكانت الأسطورة التي تنبع من نفس البيئة التي اختارها الكاتب أرضية لمجرى أحداثه الروائية .

ولن أكون مبالغا إذا قلت أن ابن هدوقة قد اختار أدواته الفنية بعناية فائقة ، مكنت هذا المزيج وبانسيابية مثيرة للتعجب أن تنصهر في بوتقة واحدة اختصرها الكاتب في كلمة واحدة هي : ريح الجنوب .ولذلك أجدني مضطرا لأن أقف مليا أمام هذا العنوان محاولا تحليله سميائيا حتى أتمكن من أن ألج أغوار بنياته النصية العميقة المتسترة وراء البنيات السطحية . ولذلك آثرت أن تبدأ هذه الدراسة من سميائية العنوان .

سميائية العنوان :

لقد أولت المناهج الحداثية العنوان عناية خاصة لما تلعبه من دور فعال في إضاءة النص . ولذلك فقد عد الموجه الرئيس في الكشف على مكتنزات النص وبنياته المختلفة والمتنوعة . ومن هذا المنطلق كان العنوان هو المرآة التي تنعكس عليها كل الآليات والعناصر الفنية التي تميز عملا فنيا ما .فهو بهذا المفتاح الذي نلج من خلاله إلى بؤر النص ونواته . ولذلك فقد عده السميائيون السؤال الإشكالي ، وما النص إلا إجابة عن هذا السؤال ، وبالتالي فهو الذي « يعلن عن طبيعة النص ، ومن ثم يعلن عن نوع القراءة التي تناسب هذا النص [i]» وبهذا المفهوم وانطلاقا من هذا الاعتبار يمكننا أن نقر بالفعل أن العنوان « دال إشاري يضع أيدينا على التداخل النصي استنساخا أو استلهاما . فهو مفتاح تقني يجس به السميولوجي نبض النص وتجاعيده وتسرباته البنيوية وتضاريسه التركيبية على المستويين الدلالي والرمزي[ii]» .وانطلاقا من هذه الأهمية التي يكتسيها العنوان في المناهج الحداثية ، وما يمكن أن يقدمه من فضاءات تمكننا من الغوص في أغوار دلالة الرمز الأسطوري كانت هذه المقاربة لعنوان رواية ريح الجنوب .

فالمتأمل في هذا العنوان سيجده تركيبا متكونا من ثلاث كلمات وهي : ريح – إضافة – جنوب . وهي عناصر ثلاثة إذا تناولناها تركيبا موحدا سوف تحيلنا على الدلالات العميقة الثاوية وراءها ، وتضع بين أيدينا ما سكتت عنه هذه الدلالة الظاهرة المنحصرة في هذه الكلمات الثلاث .فإذا انطلقنا من كلمة ريح كأول كلمة تصادفنا في هذا العنوان ، فقد يتبادر إلى أذهاننا المفهوم والدلالة المعجمية كما تشرحها القواميس .وسوف

لن يذهب فكرنا بعيدا عن الزوابع الرملية العنيفة التي تعرفها عادة المناطق الصحراوية خاصة في فصل الربيع .غير أن قارئ الرواية سوف يلفت انتباهه تكرر هذه الريح وهبوبها أكثر من مرة على الأقل . ومن هنا يتبادر إلى الذهن سؤال وجيه .لماذا لم يعنون الكاتب روايته برياح الجنوب خاصة وهو يتكلم عن رياح اعتادها أهل هذه القرية حتى أصبحوا يعرفونها بمجرد ظهور أول علاماتها . والسؤال مرة أخرى لماذا كانت ريحا بدل رياح . فمما لا شك فيه أن الكاتب قد اختار هذه الكلمة اختيارا لا مجال فيه للاعتباطية بقدر ما كان للانزياح اللغوي مركز الثقل في هذا الاختيار . ولذلك آثر أن يقدمها مجردة من الألف واللام .وهذا الاختبار له ما يبرره في المرجعية التراثية التي وظفت الكلمة وأعطتها من الإشعاعات الدلالية ما يجعلها وارفة الظلال تمتلك من القدرة ما يمكنها من أز النفوس وتحريكها بالقدر العنيف للهزات التي تعترض هذا المجتمع الذي تدور على مسرحه أحداث هذه الرواية .فإذا عدنا إلى النصوص القرآنية وجدنا توظيف كلمة ريح يختلف عما يعنيه جمعها رياح . حيث كلما ذكرت كلمة ريح في القرآن الكريم إلا وكانت نذير شؤم وثبور وهلاك، ولا يرسلها الله إلا عقابا . ومن ذلك نجد مثلا قوله تعالى :« وأما ثمود فأهلكوا بريح صر صر عاتية[iii] » وقوله أيضا : « إنا أرسلنا عليهم ريحا صرصر[iv] » أما كلمة رياح فكلما وردت في القرآن الكريم إلا وكانت بشير خير ولذلك قال تعالى :« ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات [v] » وقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم يقول إذا رأى ريحا « اللهم اجعلها رياحا ولا تجعلها ريحا [vi] » ومن هذا المنطلق فقد وظف الكاتب كلمة ريح بمعناها التراثي استشرافا لما ستحدثه في المستقبل من هزات عنيفة ستؤثر ولا شك سلبا أو إيجابا في هذا المجتمع .

والريح من طبعها طارئ يفرض نفسه ويحتم على كل الكائنات التي يجتاحها جوا لا فكاك لها منه .ولكن الشيء الذي ليس في حسبان الريح أن هذه الكائنات تملك من المورثات ما يمكنها من المقاومة والصمود مهما كانت قوة الريح ومهما كان عتيها .ومن هذا المنطلق وجدنا ابن هدوقة في روايته هذه يضع كل ثقله في التراث لما له من قدرة على المحافظة على مقومات هذا المجتمع الذي تجتاحه هذه الرياح العاتية .ومن هنا أخذت الأسطورة مكانتها وأهميتها في هذا النص.

وكلمة ريح تتكون من حيث بنائها الحرفي من الأحرف: ر – ي – ح .وهي أحرف تترك بين طياتها فجوات قد نحملها دلالات جديدة لهذا المجمع الحرفي إذا أعدنا النظر في الترتيب الحرفي للمجمع .ولعل من أبرز الدلالات التي ستطفو على السطح إذا أعدنا الترتيب كلمة – حيرة – ولا يجهل أحدنا ما في هذه الكلمة من إشارة إلى الأثر السيئ الذي ستحدثه هزة الريح في هذا المجتمع

وإذا عرجنا إلى الكلمة الثانية في هذا التركيب فسوف تصادفنا الإضافة .والإضافة من الناحية النحوية تقيد التعريف .والتعريف إما أن يكون بالألف واللام أو بالإضافة .والسؤال المطروح ههنا لماذا اختار الكاتب أن يعرف بالإضافة دون الألف واللام ؟ وبقليل من التأمل سوف يجيبنا المضاف إليه عن هذا السؤال ليؤكد لنا أن الكاتب أراد بهذه الإضافة أن يؤكد المعنى التراثي لكلمة – ريح – ويصر عليه .فنسبة الريح إلى الجنوب توجه إلى مسار دلالي محدد يجعلنا نتوجه بأنظارنا إلى ريح محددة ذات علامات وميزات معينة .تلك الريح التي تشبع الجو ترابا وغبارا حتى لا يكاد الرائي أن يرى شيئا .تلك الريح التي تضيق بها الأنفس وتتقطع بها الحركة .تلك الريح التي تملأ الجو كآبة وحزنا .وهي أيضا تلكم الريح التي تقتلع الأشجار والديار ولا تترك شيئا إلا أتت عليه .تلك إذا هي ريح الجنوب التي تكون دائما نذير شؤم وثبور .ومن هذا المنطلق وظف الكاتب دلالة الإضافة.

أما إذا انتقلنا إلى كلمة الجنوب .فإن حديثنا عن مدلول الإضافة يبين أن الكلمة ليست مقصودة لذاتها بقدر ما هي رمز اختاره الكاتب ليبرز من خلاله طبيعة الريح التي يقصدها وموقفه الشخصي منها ولذلك لم يكن من محض الصدفة أن يكون الفشل والموت المأساوي هو المصير الذي آلت إليه كل المصادر الإشعاعية في هذه الرواية متمثلة في نفيسة ورابح والعجوز رحمة .ومن هذا المنطلق يمكننا أن نزيل الإبهام أو التناقض الذي قد يتبادر على ذهن القارئ حين لا يجد الرابط بين ريح الجنوب وهي ريح لاتعرفها إلا المناطق الصحراوية من هذا الوطن وبين هذه البيئة التي تجري على مسارحها أحداث هذه القصة والتي هي بالتأكيد ليست ببيئة جنوبية وحتما لاتعرف ريح الجنوب .لنقول أن ريح الجنوب في هذه الرواية هي معادل موضوعي جاء به الكاتب ليبرز من خلاله طبيعة التغيير كما

تصوره مخيلته . فمن خلال هذا الدور أخذت كلمة الجنوب مكانتها وأهميتها في هذا السياق.

الأسطورة في رواية ريح الجنوب :

يعتبر الباحثون الأسطورة « مرحلة بدائية من مراحل التفكير المينافيزيقي ، وأول تجسيد للأفكار العامة ...وهي الجزء القولي المصاحب للطقوس البدائية [vii]» غير أن الأسطورة عادة ما ترتبط بكائن يمتلك قدرات خارقة فهي « قصة متداولة أو خرافية ، تتعلق بكائن خارق ، أو حادثة غير عادية . وتقدم تفسيرا للظاهرة الدينية أو فوق الطبيعة كالآلهة والأبطال ، وهي قصة مخترعة أو ملفقة .[viii] »وانطلاقا من هذا المفهوم نجد الأسطورة بارزة في رواية ريح الجنوب .حيث توجزها العجوز رحمة في قولها :«هذا يا بني العام الذي باع فيه الحاج الصالح رأسه على القرية [ix] »لنجد أنفسنا أمام ما تسميه الدكتورة نبيلة إبراهيم الأسطورة الطقوسية وهي التي تمثل الجانب الكلامي لطقوس الأفعال التي من شأنها أن تحفظ للمجتمع رخاءه [x]» حيث تمضي العجوز رحمة في سرد تفاصيل هذه الأسطورة وكيف كان الحاج الصالح يرقص بشكل هستيري ويلقي تعاويذه ويؤدي طقوسه حتى ابيض لسانه ولكن دون جدوى ولم تهطل ولو قطرة واحدة من مطر مما اضطره إلى أن يبيع رأسه فداءا لأهل قريته .

الدلالة الأسطورية في رواية ريح الجنوب :

وتتجلى دلالات الأسطورة في هذه الرواية من خلال الوظائف التي أدتها الأسطورة في هذه الرواية .وقد برزت هذه الوظائف من خلال المظاهر التي تجلت من خلالها والتي يمكن حصرها في ما يلي :

1- التداعيات :

ونعني بها تلك الإيحاءات التي يضفيها الأديب على الصورة الأسطورية لتتولد من خلالها صورا جديدة تربط القديم بالجديد وتجعله يبعث في ثوب جديد .بحيث يمكنك الكاتب من خلاله أن تستحضر صورة البدائي في علاقته بالطبيعة لتعايش في العصر

الحديث نفس الظاهرة ولكن بصورة العصر الحديث . وهو توظيف حداثي جاء بديلا عن الاستعارة التقليدية .وهي ظاهرة استساغها الأدب الحداثي وولع بها كثيرا أدباؤه في الشعر والنثر ولذلك فقد« استخدم الشعر الحديث الأسطورة واعتمد عليها بديلا من الاستعارة التقليدية [xi]»وقد استطاعت الأسطورة في هذه الرواية أن تنقل الرجل البدائي في أفكاره وتصوراته وتبعثه مرة ثانية في العصر الحديث فالقربان الذي كان يقدمه الرجل البدائي استنزالا للغيث هو نفس التصرف الذي عبرت عنه العجوز رحمة بباع رأسه فداءا لقريته.

2- الابتكار :

ويتجلى من خلال الفضاء الذي تفسحه الأسطورة للكاتب ليبتكر من خلالها فضاءات جديدة تحول الأسطورة من مجرد قصة خرافية إلى صورة فنية تبدو من خلالها عبقرية الكاتب وقدراته الإبداعية .ومن هنا يمكننا أن نقف على الفرق بين توظيف ابن هدوقة للأسطورة وتوظيف غيره لها .فقد كان بإمكانه أن يسطو على أحد أساطير الخصب والجذب وما أكثرها .لكن الكاتب ترك كل ذلك واختار أسطورة تنبع من صميم ثقافة المجتمع الذي يتحدث عنه .والمتأمل في هذه الأسطورة على بساطتها يستطيع أن يقف بنفسه كيف استطاع الكاتب أن يستغل إيماءاتها الإشارية ليجعل منها صورة متدفقة وفي نفس الوقت لصيقة بمجتمعه .فهي أسطورة من خلال أحداثها الخارقة وهي مرآة تعكس حقيقة مجتمعه من خلال كشفها الغطاء عن الواقع الجزائري في الفترة التي كان الكاتب يؤرخ لها من خلال هذه الرواية .

3- التواصل :

حيث استطاع الكاتب من خلال توظيفه لهذه الأسطورة أن يجعل منها أداة تواصلية تربط أجيالا عاشت في الزمن الغابر بأجيال العصر الحديث.وهكذا تحولت الأسطورة إلى حلقة وصل تربط القديم بالجديد. وهذا ما حرصت العجوز رحمة أن تنقله إلى رابح لأن التراث بالنسبة إليها ليس مجرد ارث بقدر ما هو هم ومسؤولية ثقيلة

لابد أن تحملها غيرها ولذلك كان حرصها شديدا وإلحاحها أشد حيث تحينت الفرصة المناسبة لتحمل رابح هذه الأمانة .

الإحالات

[i]–غريفل – عالم الفكر – العدد الثالث – مارس 1997 – ص . 108

[ii]– المرجع نفسه – ص. 96

[iii] – سورة الحاقة – آية 6

[ϖ]– فصلت – آية 16

[v]– الحجر – آية 22

[vi]– النووي – الأذكار – دار الكتاب العربي – بيروت – 1979– ص. 136

[vii]– عبد الرضا علي – الأسطورة في شعر السياب – دار الرائد – بيرون – ط2 – 1984 – ص .15

[viii]– د. عبد الحميد جيدة – الإتجاهات الجديدة في الشعر العربي المعاصر – مؤسسة نوفل – بيروت– ص. 105

[ix]– ابن هدوقة – ريح الجنوب– المؤسسة الوطنية للكتاب – ط2 – ص.130

[x]–عبد الرضا علي – الأسطورة في شعر السياب – دار الرائد – بيروت – ط2 – ص. 16

[xi]–د. عبد الله الغدامي – تشريح النص – دار الطليعة – ط.1 – 1987– ص.104